أهم الزوايا بالقطر الجزائري

الطريقة القادرية.

أقدم الطرق الصوفية على الإطلاق تأسيسا، وأولها ظهورا على مستوى العالم الإسلامي وهي أقدمها وجودا في الجزائر حيث وجدت أرضا خصبة استطاعت أن تنمو فيها وتزدهر خصوصا أثناء الحكم العثماني وهي تنتسب إلى الشيخ عبدالقادر الجيلاني نسبة إلى جيلان من بلاد فارس التي ولد بها سنة ٤٧٠هـ ١٠٧٧م ومنها انتقل إلى بغداد والتي كانت تعج بكبار الفقهاء وأعلام المحدثين، والقمم العوالي من أهل التصوف، كما كانت محط أنظار طلاب الدنيا والدين.

وفيها تتلمذ وتخرج على كبار شيوخها ومتصوفيها فكان علما في الفقه والحديث فانتصب للوعظ والإرشاد، وتصدى للتدريس والتأليف وترك للثقافة العربية الإسلامية ثروة لا يستهان بها من الكتب والرسائل نذكر منها:

- الفتح الرباني
- الغنيمة لطالب الحق
- فتوح الغيب
- الفيوضات الربانية

كتب عنه وترجم له الكثير من العلماء المسلمين والأجانب من بينهم المستشرق الأنجليزي مرجليوت، والشيخ موسى اليونيني الذي خصه بكتاب سماه. مناقب الشيخ عبد القادر الجيلاني. وقد تحدث عنه ابن كثير قائلا: «كان الشيخ عبد القادر الجيلاني يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر للخلفاء والوزراء والسلاطين والقضاة والخاصة والعامة. يصدعهم بذلك على رؤوس الأشهاد وعلى المنابر وفي المحافل وينكر على من يولى الظلمة ولا تأخذه في الله لومته لائم».

ويقول عنه صاحب قلائد الجواهر: «ولما ولي أمير المؤمنين القاضي أبا الوفاء يحي بن المظفر المشهور بابن المترجم الظالم قال الشيخ عبد القادر يخاطب أمير المؤمنين على المنبر: وليت على المسلمين أظلم الظالمين فما جوابك غدا عند رب العالمين أرحم الراحمين ؟ فارتعد الخليفة وبكى وعزل القاضي المذكور لوقته».

انتشرت الطريقة القادرية في جهات عديدة من العالم الإسلامي انتشارا واسعا وكان لها نشاط كبير في نشر الإسلام. ففي إفريقيا الغربية استطاع أتباعها ومريدوها أن ينشئوا الزوايا ويفتحوا الكتاتيب القرآنية في القرى والمداشر حيث التجمعات السكانية. وتمكنوا من تعليم الأطفال قراءة العربية وكتابتها وتلقينهم الدين الإسلامي وإرسال النجباء منهم بعد ذلك إلى

معاهد طرابلس والقيروان وجامع الزيتونة والقرويين والأزهر الشريف على نفقة الزوايا القادرية قصد إتمام دراستهم والعودة إلى أوطانهم للعمل في سلك نظام الفرق الصوفية التي كانت تقاوم حملات التبشير المسيحي في تلك الديار.

وكان للطريقة القادرية دورها العظيم في حمل راية الجهاد والمقاومة دفاعا عن الإسلام وأوطان المسلمين والتصدي للاستعمار بكل شجاعة وبجميع أنواع الأسلحة. وقد تزعم شيوخها ومقدموها الكثير من الثورات التي اندلعت في بلاد العروبة والإسلام ضد الغزاة المحتلين. وغذاة الاحتلال الفرنسي للجزائر استطاعت هذه الطريقة أن تندمج في تيار الحركة الوطنية وتستعمل نفوذها الروحي للدعوة إلى الجهاد ضد الفرنسيين.

ومن أبرز مقدميها الذين كان لهم في ساح اَلْوَغَى، ومعارك الجهاد دور يذكر المجاهد الشيخ محي الدين وابنه البطل الثائر الأمير عبدالقادر الذي قاوم الاحتلال الفرنسي وقاد الكفاح المسلح مدة سبعة عشرة سنة كاملة.

أما عن دخول هذه الطريقة إلى الجزائر فيعود إلى الشيخ سيدي أبي مدين شعيب دفين تلمسان والمتوفي سنة ٥٩٤هـ فهو الذي أدخلها بعد أن تتلمذ على شيخها وأخذ عنه التصوف وألبسه

الخرقة كما هو معمول به عند المتصوفة وكان ذلك بعد عودته من البقاع المقدسة حيث أدى فريضة الحج.

كما كان قدوم ابراهيم بن عبد القادر الجيلاني من المشرق إلى المغرب الأقصى ثم انتقاله إلى الجزائر ليستقر بالأوراس حيث أسس الزاوية القادرية ببلدة منعة كان ذلك من العوامل التي ساعدت على نشر الطريقة القادرية في شرق البلاد وغربها على الخصوص حيث يوجد ما يربوا على المائتي زاوية تخلد اسم الشيخ عبدالقادر الجيلاني.

والزاوية القادرية بمنعة في الأوراس والتي تشرف عليها أسرة ابن عباس المعروف في تلك النواحي هي التي لجأ إليها الحاج أحمد باي سنة ١٨٤٤ بعد سقوط مدينة قسنطينة في أيدي جيوش الاحتلال الاستعماري كما لجأ إليها الكثير من المجاهدين خلال الثورات التي قامت بالأوراس الأشم.

وهناك بالغرب الجزائري وبالضبط بالقرب من مدينة معسكر توجد زاوية القيطنة التي أسسها الشيخ مصطفى الغريسي جد الأمير عبدالقادر حوالي سنة ١٢٠٠هـ ١٧٨٥م وذلك قبل وفاته وهو عائد من أداء فريضة الحج من عين الغزال بالقطر السليبي.فخلفه فيها ولده الشيخ محي الدين وكان كأسلافه من

العلماء الأعلام الذين يرجع إليهم في حل مشكلات الأحكام وبقي بها إلى سنة ١٢٥٠هـ.

ونعود إلى انتشار الطريقة القادرية في إفريقيا لنشير إلى أنها استطاعت الدخول إلى السودان عن طريق جنوب المغرب (مراكش) وأغلب الظن أنها لم تنتشر في السودان قبل القرن الخامس عشر وتوجد أغلبية أتباع الطريقة القادرية في غرب السودان حتى "سوكوتو" وهم الجانب الأعظم من المغاربة والسوناري والفولبا، وكذلك غالبية سكان غرب تومبوكتو كما انتشرت القادرية في "فوناجاكون" وفي قبائل المالينكة وفيانا الفرنسية سابقا وشرقها حتى ساحل العاج والكونغو. لذلك تعتبر القادرية من أنشط الطرق في نشر الإسلام بواسطة التجار من أتباعها ومريديها.

ومن شيوخها الشيخ أحمد بن ادريس الفاسي الذي كان على وفاق في الرأي والتفكير مع الشيخ السنوسي وقد تحدثنا عنه أثناء ترجمتنا لهذا الأخير، والقادرية ثلاث فرق:

الأولى: القادرية البكائية وهي منتشرة في تمبوكتو.

الثانية: القادرية التي توجد في بعض واحات الصحراء الغربية.

الثالثة: القادرية الذين في ولاته وقد انتشروا في السودان الغربي ووصلوا إلى سيراليون.

ويمتاز أتباع هذه الطريقة بالتسامح متأثرين بأقوال شيخ الطريقة وتعاليمه ومواعظه مثل قوله لهم: «اتبعوا ولا تبتدعوا وأطيعوا ولا تخالفوا واصبروا ولا تجزعوا واتحدوا ولا تتمزقوا وانتظروا ولا تيأسوا واجتمعوا عَلَى الذكر ولا تتفرقوا وتطهروا من الذنوب ولا تتناطحوا وعن باب مولاكم فلا تبرحوا».

ومن أقواله: «إذا وجدت في قلبك بغض شخص أو حبه فاعرض أعماله على الكتاب والسنة فإن كانت محبوبة فيهما فأحبه وإن كانت مكروهة فاكرهه لئلا تحبه بهواك وتبغضه بهواك.» وسئل الجيلاني عن الدنيا فقال: «أخرجها من قلبك إلى يدك فإنها لا تضرك».

توفي الشيخ عبد القادر الجيلاني عام ٥٦١هـ ١١٦٦م وضريحه مشهور ببغداد يقصده الزُّوَارُ من كل جهات العالم رحمه الله وطيب ثراه.

الطريقة الشاذلية.

مؤسس هذه الطريقة هو الشيخ أبو الحسن على ابن عبد الله بن عبد الجبار الشاذلي المولود بالمغرب الأقصى في بلدة غمارة القريبة من مدينة سبتة سنة ٥٩٣هـ وفي مسقط رأسه أكب على حفظ القرآن الكريم ودراسته للعلوم الدينية واللغوية التي برع فيها براعة كبيرة. وكان من أبرز شيوخه الذين أخذ عنهم علوم الظاهر والباطن الصوفي الكبير الشيخ عبدالسلام بن مشيش الذي يعد من أكابر المتصوفة بالمغرب الأقصى.

وبتوجيه منه غادر أبو الحسن المغرب إلى تونس حيث تتلمذ على كبار علمائها فازداد بذلك علما وفقها وتصوفا ثم انتقل منها ليستقر ببلدة شاذلة التي نسب إليها وعرف بها فيما بعد. وهي من مدن تونس المعروفة. وبعد مضايقات تعرض لها من بعض منافسيه، يغادرها نهائيا ليحط الرحال بمدينة الاسكندرية إلى أن توفاه الله سنة ٦٥٦هـ وهو في طريقه إلى بيت الحرام، فدفن في خميثرة بصحراء عيذاب بين قنا والقصير بالصعيد المصري، رحمه الله وطيب ثراه.

ويعود تاريخ تأسيس هذه الطريقة إلى النصف الأول من القرن الثالث عشر الميلادي، وتعتبر هذه الطريقة مع سابقتها ـ القادرية ـ

من أقدم الطرق الصوفية استقرارا بالمغرب حيث كان مركزها بوبريت في مراكش وهي من الطرق الأولى التي ادخلت التصوف إلى منطقة المغرب.

وانطلقت الطريقة الشاذلية من مركزها المذكور لتنتشر انتشارا واسعا في الجزائر، واستطاعت بمرونة تعاليمها، واعتدال نهجها أن تؤثر تأثيرا ملحوظا في أكثر الطرق الصوفية التي ظهرت بعد القرن السابع عشر الميلادي، وتفرعت عنها عدة طرق كالدرقاوية والطيبية، واليوسفية، والزيانية، والزروقية، والشيخية، كما استطاعت أن تستقطب إليها الكثير من كبار العلماء الذين أصبحوا ينتسبون إليها أمثال الشيخ عبدالرحمن الثعالبي وأحمد بن يوسف الملياني، وابراهيم التازي وغيرهم ممن كتبوا عنها، وخصوها بالتأليف والترجمة لأعلامها.

وأما عن نهج الطريقة الشاذلية الذي رسمه شيخها أبو الحسن فقد تحدث عنه هو بنفسه قائلا: «ليس هذا الطريق بالرهبانية ولا بأكل الشعير والنخالة، ولا ببقبقة الصناعة وإنما هو بالصبر على الأوامر واليقين في البداية كما قال تعالى: "وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون"».

وقد عرف عن أبي الحسن الشاذلي أنه لم يكن متشددا ولا متزمتا في ملبسه ومأكله ومشربه بل كان يلبس الفاخر من الثيّاب،

ويركب القارِةَ من الدواب، ويتخذ من الخيل الصفنات الجياد لأنه كان يحبها ويقتنيها ويركبها فارسا وفي المواسم الدينية.

دخل عليه في يوم من الأيام أحد الفقراء وعليه لباس خشن من شعر فدنا من الشيخ وأمسك بملبسه قائلا: «يا سيدي ما عند الله بمثل هذا اللباس وكان الشيخ لابسا ثيابا حسنة جميلة». فأمسك الشيخ الشاذلي بدوره بلباس الفقير وكان كما قلنا من شعر خشن وقال له: «وَلاَ عبدالله بمثل هذا اللباس الذي عليك، لباسي يقول أنا غني عنكم فلا تعطوني، ولباسك يقول أنا فقير إليكم فأعطوني[1]». ودخل عليه مرة تلميذه أبو العباس المرسي رحمه الله وفي نيته أكل الخشن، ولبس الخشن فقال له الشيخ أبو الحسن: «يا أبا العباس، أعرف الله وكن كيف شئت. ومن عرف الله فلا عليه أن يأكل هنيئا ويشرب هنيئا وهذا كله مصداقا لقوله جل شأنه وعزت قدرته: "قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة"».

وللطريقة الشاذلية كغيرها من الطرق الأخرى دورها في الجهاد في سبيل الله، وحرب المعتدين على الإسلام والمسلمين من

---

[1] لطائف المنن لابن عطاء الله.

الحاقدين الصليبيين، وتعاليم الشاذلي لمريديه وأتباعه ملينة بالحث على الجهاد الذي أصبح صفة لازمة لشيوخ الطرق الصوفية وأتباعها ومن أقوله في هذا الموضوع: «لا بد للمريد من الجهاد، لا بد من جهاد العدو، ومن أراد أن لا يكون للشيطان عليه سبيل فليصحح الإيمان والتوكل، والعبودية لله وليستعذ به سبحانه».

وفي هذا المقام نذكر بما وقع في أواخر النصف الأول من القرن السابع الهجري، تاريخ وقوع معركة المنصورة بين جيوش الصليبية المتكالبة الحاقدة على الإسلام الذي أخذ يتأهب لملاقاة الأعداء وكله ثقة في الله وإيمانٌ بنصره.

وكان في مصر حينئذ جماعة من كبار أعلام الصوفية كأبي الحسن الشاذلي، الذي لم يمنعه كبر سنه وعجزه من أن يكون في مقدمة المتوجهين إلى المنصورة للمشاركة في المعركة الفاصلة بين الإسلام والصليبية متخذا مكانه كسائر الجنود المجاهدين من خيام المعسكر.

هكذا كان شيوخ التصوف ورجاله في كل عصر ومصر مضرب الأمثال في الحركة والمقاومة والجهاد في سبيل المصلحة العليا للإسلام المسلمين ولم يكونوا كما يظنهم البعض خاملين جامدين كسالى متزمتين.

ذكر الإمام ابن كثير أن الشيخ عزالدين بن عبدالسلام سلطان العلماء كان يحضر مجلس الأستاذ أبي الحسن الشاذلي فيسمع منه ويشاهد حسن إفصاحه عن العلم اللدني فيركض طربا مع المريدين قائلا: «تأملوا هذا التقرير فإنه قريب من ربه». وقد وصفه الإمام البوصري صاحب البردة بأنه بحر العلم في قصيدة مدحه بها. ومدحه ابن المبلق فقال:

لقد كان بحرا في الشرائع راسخا ولا سيما علم الفرائض والسنن

ومن منهل التوحيد عب وارتوى فلله كم روى قلوبا بها محن

وحَازَ علوما ليس تحصى لكاتب وهل يحضر الكتاب ما جاز من فتن

وقال ابن عياد في المفاخر العلية: «كان أبو الحسن عالما عارفا بالعلوم الظاهرة، جامعا لدقائق فنونها، ومفتضا لأبكار المعاني وعيونها من حديث وتفسير وأصول ونحو وصرف ولغة ومعقول وحكمة وآداب وأما علوم المعارف الآلهية، فقطب رحاها، وشمس ضحاها».

لقد تخرج بصحبته وعلى يديه جماعة من كبار العلماء وشيوخ التصوف وأعلام نذكر من أبرزها أبا العباس المرسي دفين الاسكندرية والذي قال عنه الشاذلي عند وفاته: «إنه الخليفة من بعدي وسيكون له بينكم مقام عظيم وهو باب من أبواب الله سبحانه وتعالى»، وأبا العزائم ماضي وغيرهم.

يقول شارح القاموس المحيط السيد مرتضى الزبيدي صاحب تاج العروس، وممن كان يحضر مجلسه: «العز بن عبدالسلام وابن دقيق العيد، وناهيك بهما والحافظ المنذري وابن الحاجب وابن الصلاح وابن عصفور وغيرهم بالكاملية بالقاهرة».

ولأبي الحسن الشاذلي من الآثار والمؤلفات: الحزب المشهور:

- حزب الشاذلي،
- رسالة الأمين في آداب التصوف،
- السر الجليل في خواص حسبنا الله نعم الوكيل.

وقد خصه أحمد بن عياد بكتاب عنوانه: المفاخر العلية في المآثر الشاذلية. ونختم هذه الكلمة بقول ابن دقيق العيد: «ما رأيت أعرف بالله من الشيخ أبي الحسن الشاذلي رضي الله عنه».

الطريقة الرحمانية

وتنتسب إلى العالم الجزائري الشيخ محمد بن عبدالرحمن القشوطي الإدريسي الحسن الأزهري الذي جاء بها من المشرق حيث كان يدرس. وقد ظهرت هذه الطريقة في النصف الثاني من القرن الثاني عشر الهجري وعرفت انتشارا واسعا وكان لها في المقاومة الوطنية ضد الاحتلال الفرنسي اليد الطولى بفضل شيوخها وأتباعها الذين أعلنوا الجهاد المقدس على الغزاة المحتلين في القطاع القسنطيني، ومن آعالي جرجرة، وقمم أوراس الشامخة ضاربين للأجيال أروع الأمثلة في الشجاعة والبطولة، وملقنين الأعداء أعظم الدروس في التضحية والفداء رحمهم الله وقدس أرواحهم.

ولد مؤسس هذه الطريقة الشيخ محمد بن عبدالرحمن في قرية بوعلاوة من قبيلة ـ آيت اسماعيل ـ بجبال جرجرة حوالي ١١٢٦هـ وبعد تعلمه في زاوية الشيخ الصديق بن أعراب في قرية آيت إيراتن غادر الجزائر في طريقه إلى البقاع المقدسة قصد أداء فريضة الحج وبعد أداء المناسك قفل راجعا وفي طريق عودته توقف بالقاهرة ليستقر بالجامع الأزهر الشريف مجاورا برواق المغاربة مدة ربع قرن تقريبا.

وقد تتلمذ خلال تلك الفترة على مجموعة من كبار أعلام مصر من الفقهاء والمحدثين نذكر منهم: علي بن أحمد الصعيدي، وسالم النفراوي، وعمر الطحلاوي، وحسن الجداوي، والعمروسي، وأحمد الدربرومي، ومحمد بن سالم الحفناوي. وعن هذا الأخير تلقى الشيخ محمد بن عبدالرحمن الطريقة الخلوتية أصبح فيما بعد من المبشرين بها الناشرين لها في الهند والسودان بأمر من شيخه المذكور.

وبعد عودته إلى أرض الوطن سنة ١١٨٣هـ ١٧٦٩م يقوم بتأسيس زاويته في مسقط رأسه بآيت اسماعيل والتي ينطلق منها في نشر تعاليم الطريقة الخلوتية التي عاد بها إلى الجزائر فعرفت باسمه فيما بعد . الرحمانية . والخلوتية تنسب إلى عدد من الشيوخ كالشيخ عمر الخلوتي المتوفى سنة ٩٨٦هـ ١٥٧٨م والشيخ محمد البالسي الخلوتي وقطب الدين أحمد الأبهري.

وقد لقيت تعاليم الطريقة الخلوتية إقبالا كبيرا من طرف مواطني المنطقة، الأمر الذي لم يرق بعض مرابطي الجهة الذين شاروا عليه فقرر الشيخ الانتقال إلى العاصمة والاستقرار بالمكان المعروف إلى يومنا هذا بالحامّة.

وفي هذا الحي من العاصمة قام الشيخ بتأسيس زاوية لنفس الغرض، وأخذ يبث تعاليمه فيها، فلقيت دعوته نجاحا كبيرا في

أوساط المواطنين الذين التفوا حوله وثاروا به، وأخذت دعوته تنتشر لتعم مختلف نواحي الوطن مما عرضه للمكائد والدسائس، وأثار حوله الكثير من الشبهات والتهم، حتى اضطر إلى تلبية استدعاء المجلس العلمي والمثولُ أمامه برئاسة الشيخ على عبدالقادر، ابن الأمير المفتي المالكي. وبعد مناقشة فيما اتهم به والاستماع إليه تأكدت براءته من طرف المجلس المذكور.

وهكذا استأنف الشيخ نشاطه من جديد، وتفرغ لنشر الطريقة الخلوتية التي عرفت كما قلنا فيما بعد بالطريقة الرحمانية نسبة إلى الشيخ محمد بن عبدالرحمن المذكور مع محافظتها على مبادئ وأصول الطريقة الخلوتية.

وأهم المناطق التي انتشرت فيها الطريقة الرحمانية انتشارا كبيرا هي وسط وشرق وجنوب الجزائر، وفي منطقة الجريد بالقطر التونسي الشقيق ويعود الفضل في ذلك إلى زاوية الشيخ مصطفى بن عزوز البرجي الرحمانية. وأكثر أتباع الطريقة الرحمانية من الطبقات الشعبية الفقيرة عمال، فلاحين، تجار صغار. وهي الفئات التي تتحمل دائما العبء الأكبر من التضحية في الأوقات الصعبة ولعل هذا من أهم العوامل التي جعلت الطريقة الرحمانية تحتل المكان البارز في المقاومة الوطنية ويتحمل أتباعها وشيوخها جسيم التضحيات من سجن ونفي وتشريد وتغريم أبان الثورات التي قامت ضد الاحتلال الاستعماري لبلادنا.

وبناء على إحصائية عام ١٨٩٨ والتي سجلها المستشرق رين فقد بلغ عدد الزوايا للطريقة الرحمانية ١٧٧ زاوية وعدد أتباعها ١٥٦,٢١٤ خونيا.

وقد لعبت الزوايا الرحمانية الكثيرة والمنتشرة في جهات مختلفة من الوطن دورا عظيما في نشر الثقافة الإسلامية، والحفاظ على القرآن يتلى اناء الليل وأطرق النهار، وبالتالي فقد حافظت الزوايا الرحمانية على مقومات شخصيتنا العربية الإسلامية طيلة عقود وعقود من الزمن.

ومن أبرز الزوايا الرحمانية المعروفة منذ أواخر العهد العثماني نذكر الزاوية الأم التي ظلت تقوم بأداء رسالتها على أكمل الوجه بفضل شيوخها الأجلاء الذين نذكر منهم: أحمد بن الطيب الرحموني وهو صاحب الرجز المعروف في الفقه والذي ظل مصدرا مهما من مصادر القضاء ومراجعه في منطقة جرجرة. وزاوية الحامة في العاصمة التي يوجد بها ضريح الشيخ ابن عبدالرحمن طيب الله ثراه. وزاوية المجاهد الشيخ الحداد ببلدة صدوق، والزاوية العثمانية بطولقة التي ظلت مركز اشعاع ولا تزال كذلك إلى يومنا هذا، وزاوية الشيخ عبدالحفيظ الخنقي المجاهد الثائر في خنقة سيدي ناجي نواحي بسكرة.

وهنا لا بد من التذكير بما قام به شيوخُ الطريقة الرحمانية ومقدموها، ورجال زواياها في مقاومة الاحتلال الفرنسي للجزائر والتصدي لمحاربته بكل الوسائل وفي مقدمتها تعبئة الجماهير وتوعيتها، وقيادتها، وإذكاء روح الجهاد فيها من أجل حماية الوطن والدفاع عن حياضه، وهي حقيقة تاريخية لا ينكرها إلا مكابر أو مغرض.

إن ثوراتهم في منطقة القبائل الكبرى والصغرى وفي جبال أوراس الأشم لا تزال تملأ كتب التاريخ الحديث فليرجع إليها من يريد الاطلاع عليها فالشيخ الحداد، وفاطمة نسومر، والصادق بلحاج، وبن جار الله، وعبدالحفيظ الخنقي، وغيرها من الأسماء التي لا يتسع لذكرها المقام ستظل منقوشة في ذاكرة التاريخ تروى بطولاتها للأجيال.

ومن الذين أخذوا عن الشيخ محمد بن عبدالرحمن وتتلمذوا عليه نذكر أحمد التيجاني مؤسس الطريقة الرحمانية بالصحراء ودفين برج طولقة وصاحب الطريقة العزوزية، والشيخ عبدالرحمن باش تارزي شيخ الطريقة والزاوية الرحمانية بقسنطينة عليهم جميعا رحمة الله ومغفرته ورضوانه.

وعلى ذكر الشيخ باش تارزي نشير إلى المنظومة الرحمانية في الأسباب الشرعية المتعلقة بالطريقة الخلوتية. وهي من نظم

الشيخ المذكور وقد تم طبعها سنة ١٩٢٣ بمطبعة النجاح بقسنطينة وأشرف على تصحيحها وكتابة خاتمة الطبع الإمام عبدالحميد بن باديس رحمه الله وطيب ثراه.

وفي شوال عام ١٣٣٥هـ جلس على سجادة الطريقة الخلوتية بعد وفاة عمه الشيخ البركة سيدي الحاج أحمد عليه الرحمة والرضوان وله في الأذن بتلقين الذكر في الطريقة الخلوتية إجازتين بسندين يتصلان بالقطب الأكبر والغوث الأشهر الشيخ سيدي محمد (بفتح الميم) بن عبدالرحمن القشطولي الأزهري دفين الجزائر الذي أتى بالطريقة الخلوتية إلى وطن الجزائر من ديار مصر.

الإجازة الأولى.

أجازه بها أبوه الشيخ سيدي محمد عن أبيه الشيخ سيدي الحاج محمد عن عمه العلامة الشيخ سيدي مصطفى شارح الرحمانية عن أبيه الولي الكامل الشيخ سيدي الحاج عبدالرحمن باش تارزي ناظمها عن القطب الأكبر سيدي محمد بن عبدالرحمان دفين الجزائر رحمه الله تعالى ورضي عنه.

الإجازة الثانية.

والإجازة الثانية أجازه بها ابن عم جده الشيخ سيدي الحاج السعيد باش تارزي عن الولي الصالح الشيخ سيدي علي بن عيسى

عن القطب الأكبر سيدي محمد بن عبدالرحمن رحمهم الله تعالى، رضي عنهم وهذا السند عال ليس فيه بين القطب الاكبر والشيخ المجاز إلا واسطتان ولا يعرف مثله اليوم لمقدم خلوتي في وطن الجزائر.

ندبني الشيخ المذكور إلى إعانته على نشر المنظومة الرحمانية بالوقوف على تصحيحها فلبيت طلبه راجيا من وراء ذلك أن يتذكر الإخوان ما عليهم في هذا الطريق الشرعي من الأدب العملي والعلمي ويعلموا أنهم في ترقية نفوسهم مجرد الانتساب الأسمى فيدعوهم ذلك إلى العلم والتعلم اللذين لا سعادة في الدارين بدونهما. فيفقهوا حينئذ حقيقة الدين وينتفعوا بنصائح المرشدين ويكونوا يوم ذاك إن شاء الله تعالى من المهتدين وإليه المسؤول أن يهب التوفيق والنفع والثواب لكل ساع في خير المسلمين آمين وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين.

تلكم هي المنظومة الرحمانية في الأسباب الشرعية المتعلقة بالطريقة الخلوتية التي وقف الإمام ابن باديس على تصحيحها ونذكر بعض الأبيات منها. يقول ناظمها رحمه الله:

باسم نبدا يا معين والصلاة على الأمين

من أتانا باليقين في طريق الأوليا

يا من تريد الشفا واتباع المصطفى
ادخل طريق الوفا طريق الخلوتيا
يا من تريد التوفيق وسلوك أهل التحقيق
اخدم هذه الطريق طريقة الصوفيا
يا من تريد الأوراد وبلوغ ما يراد
ادخل طريق الإسناد طريقاً ازهريا

ولولا خشية التطويل الممل على القارئ الكريم لأتيت بالمنظومة كلها. ونعود لمترجمنا الشيخ محمد بن عبدالرحمان في ميدان التأليف إلى شرحه على رسالة الشيخ عبدالله محمد الرفاوي الأزهري في آداب طريق الصوفية (مخطوط) وَلَهُ أيضاً قصيدَتُهُ المعروفة في الحنين إلى المدينة المنورة وزيارة الرسول عليه الصلاة والسلام عنوانها، تحريك الساكن بين الشوق الكامن في زيارة طيبة وَمَنْ بها ساكن والتي يقول في مطلعها.

دعاني الهوى والشوق افلق ما بيا وحادي الركاب حن بالعيش غاديا
فحرك ضمني في حشاي سواكنا إلى ساكن الحمى وهاج فؤاديا
وطار قلبي من شحوني ؟؟ وفاضت دموعي في عيوني سواقيا
شغفت عبدا لو يساعدني الهوى بزورتها أعطيت نفسي ومياليا

وما الحب حتى يسلم العبد نفسه ويسمع من يفنى بما كان فانيا

ولو كانت الدنيا لدى بأسرها وأنفقتها فيكم لما كنت وافيا

ولو كان طوقي لجئت دياركم على حدق الأجفان والخد ساعيا

وهي قصيدة طويلة يمكن الرجوع إليها في الجزء الرابع من تاريخ الجزائر العام للشيخ عبدالرحمن الجيلالي.

توفي الشيخ محمد بن عبدالرحمن الأزهري بمسقط رأسه سنة ١٢٠٨هـ ١٧٩٤م ويذكر أن جماعة من مريديه بالعاصمة نقلوه من قبره خفية إلى مكانه المعروف حاليا بالحامة قربا من حي بيلكور حيث ضريحه مزار. وهذا وجة تسميته ببوقبرين رحمه الله وطيب ثراه.

ولتعميم فائدتها بين القراء الكرام نثبت خاتمة الطبعة المحررة بقلم الإمام ابن باديس في قسنطينة عشية الأربعاء ١٤ من شوال عام ١٣٤١هـ يقول رحمه الله:

«الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى جميع الأنبياء والمرسلين والآل والصحابة أجمعين وجميع التابعين بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد، فقد تم طبع المنظومة الرحمانية ذات الأسرار الربانية الجامعة لأصول الطريقة الخلوتية وآداب التربية الشرعية الدالة

على علم ناظمها وبركته بما نفع الله بها من أتباعه وتلامذته حتى نفدت طبعتها الأولى مع شرحها، فكثرت الرغبات وتوالت الطلبات في إعادة طبعها لتعميم نفعها فقام بذلك على نفقته العالم البركة ؟؟؟ الخير الثقة شيخ شيوخ الطريقة الخلوتية بقسنطينة اليوم، المتحلى من أخلاق أسلافه بالنفائس الغالية السوم، الشيخ سيدي مصطفى بن الشيخ سيدي محمود بن الشيخ سيدي الحاج محمد بن الشيخ سيدي محمود ابن الشيخ الأكبر سيدي الحاج عبدالرحمن باش تارزي زاد الله من بركة توفيقه وسدده في سلوك طريقه بمنّهِ آمين».

ولنحل هذا الخاتمة بكلمات وجيزة في ترجمته فنقول لازال هذا الرجل معروفا من شبابه بجمال العفة حسن السمت ومكارم الأخلاق والحياء التام والتواضع الفطري مع جميع الناس. اعتنى بتربيته أبوه الشيخ سيدي محمود ثم ابن عم جده الشيخ سيدي الحاج السعيد فحفظ القرآن وقرأ العلم وتأدب بأدب الطريق وشب على الأخلاق الكريمة اللائقة بمثله في كرم محتده وشريف تربيته ما هو مترشح من الجلوس على سجادة الطريق وتهذيب الإخوان حتى نال بذلك المنزلة الرفيعة في قلوب عارفية عموما وأهل الطريقة خصوصا.

وفي رجب من عام ١٣٢٩ ولي خطة الخطابة والإمامة بالجامع الأخضر الحنفي بعد وفاة الشيخ سيدي السعيد الذي كان إماما خطيبا بالجامع الكتاني الحنفي.

قائمة بأسماء بعض مؤلفات

الطريقة الخلوتية الرحمانية

ولنبدأ أولا بما اشتهر من أورادها ونستفتح بأوراد الشيخ سيدي مصطفى البكري:

ورد السحر ويقال هو باب الفتح وشروحه له.

ورد الإشراق اللامع نوره البراق له.

ورد المسافر ذو النور السافر له.

الدر الفائق في الصلاة على أشرف الخلائق له.

المنهل العذب السائغ في صلوات الطريق وأوراده له.

ورد الضحى وأوراد سائر الأوقات له. وله غير ذلك.

ورد الستار ليحي الباكورى وشرحه للشيخ شاه ولي.

صلوات الوردين وشرحها للصاوى وعبدالبر الشافعي.

أرجوزة الشيخ سيدي عبدالملك لحمادي مع اسم اللطيف.

بهجة الشائقين للشيخ مصطفى بن عزوز وشرحها للشيخ الحفناوي بن علي بن عمر والحاج الأخضر.

غنية الفقير للشيخ عبدالحفيظ الخنقي وشرحه له.

حزب الفلاح ومصباح الأرواح له.

حزب الشيخ محمد بن أبي القاسم.

شرحه: المطلب الأسنى لابن أخيه محمد بن الحاج محمد.

شرحه: فوز الغانم للشيخ محمد بن عبدالرحمن حفيد سيدي ابراهيم الغول.

التوسلات النافعات للشيخ أحمد العزوزي بن عبدالملك الحمادي.

حزب النووي.

حزب البحر.

المشيشية.

المؤلفات

كتاب السير والسلوك للشيخ مصطفى البكري.

الألفية الكافية الوافية له.

النصيحة السنية في آداب كسوة الخلوتية له.

حواشيها تسمى الكلمات الخواطر على الضمير والخاطر له.

تسلية الأحزان وتسلية الأشجان له.

هدية الأحباب فيما للخلوة من الشروط والآداب له.

بلوغ المرام وخلوة خلوتية الشام له.

السيوف الحداد في أعناق أهل الزندقة والإلحاد له.

الوصية الجلية للسالكين طريق الخلوتية له.

بلغة المريد ومشتهى الموفق السعيد له.

الوارد الطارق واللمح الفارق له.

تشييد المكانة لمن حفظ الأمانة له.

فواتح أبواب العرفان وفوايح أطياب الإحسان له. وله غير ذلك.

كتاب السر المصون للشيخ محمد الحفني شيخ الطريقة.

رسالة آداب الذكر له.

رسالة فتح الباب للشيخ محمد بن عبدالرحمن الأزهري.

طي النفوس من تكلم بها جال في بحر ملكوت القدوس له.

كتاب ـ الزفاقية ـ ألفها بإذن الشيخ الحفني.

دفتر الدفاتر له.

زلزلة النفوس له. وكان لا يفارقه لعزته عليه.

شرح الريفاوي له.

وله غير ذلك من الرسائل العديدة التي كتبها إلى الإخوان في البلدان كالجزائر والبليدة وقسنطينة وتونس.

روض الجنان في شرح رسالة ابن عبدالرحمن للشيخ ابن الفخار المداني.

منظومة الرحمانية للشيخ عبدالرحمن باش تارزي وشرحها لولده الشيخ مصطفى وقد طبعت بمطبعة النجاح تحت إشراف وتصحيح إمام النهضة الإصلاحية عبدالحميد بن باديس طيب الله ثراه.

غنية المريد للشيخ عبدالرحمن باش تارزي.

شرح الشيخ عبدالقادر المجاوي على نظم للشيخ مصطفى باش تارزي.

نظم قواطع المريد وشرحه للشيخ محمد بن عزوز.

رسائله إلى علماء الخنقة وغيرهم.

رسالة في السلوك ومناقب الشيخ على بن عمر للشيخ مصطفى بن عزوز.

رسالة في خطاب بعض المعارضين له.

تكملتها للشيخ على بن عثمان.

رسالة في أن حب الدنيا قاطع للسائر للشيخ على بن عثمان.

النبذة اللطيفة فيما يلزم السائر في الطريقة المنيفة له.

الرد على من اكتفى بنسبة الطريقة دون أخذ العهد له.

فاكهة الحلقوم للشيخ عبدالحفيظ بن علي بن عمر.

غنيمة المريدين للشيخ عبدالحفيظ الخنقي.

نزهة الطريقة الخلوتية له.

وصية الشيخ للإخوان في كل زمان له.

كمال الكمال للشيخ الصادق بن الحاج المموذي.

رسالة في التحرك حال الذكر للشيخ محمد بن أبي القاسم.

رسالة في أن الخلوتية والشاذلية طريقة واحدة له.

رسالة النهي عن التصدر للطريقة بلا إذن وبذل الأسماء للتلقين بدعوى التسليك بلا أساس له.

الزهر الباسم لابن أخيه محمد بن الحاج محمد.

الهواتف للشيخ التارزي بن عزوز.

رسالة في السماع ونقاء الطريقة من البدع للشيخ المدني بن عزوز.

رسالة في استقامة هذه الطريقة للشيخ محمد الصالح بوحجر، شرح الشيخ عمار البوطالبي القسنطيني.

تحفة السالكين ودلالة السائرين لمنهج العقربين للمنير السمنهودي.

السلوك لأبناء الملوك للعارف الشيخ محمد الكردي بطلب من ابن الطريف.

تحفة الإخوان والخلان في بعض آداب أهل العرفان للشيخ الدردير.

منهج الصادقين له. حاكى به أحياء الإمام الغزالي.

ربيع الفوائد للشيخ عبدالله الشرقاوي.

تأليف للشيخ ابن الحداد.

حكمة المغانم في جميع النعائم للشيخ ابراهيم بن أدهم بن محمد الصادق بن الحاج بن منصور ومن التآليف العتيقة:

آداب المريدين لأبي النجيب السهرودي.

الوصايا السهرودية وشرحها: إرشاد الطالبين لأرشد اليورسوي.

عوارف العوارف للشهاب السهرودي وحواشيها واختصارها.

رسالة السلوك للنجم الكبرى.

الوصايا القدسية للزين الخوافي.

منهج الرشاد له.

الانالة العلمية لأبي جعفر بن ليون.

بغية السالك للإمام الساحلي المالقي.

وسيلة للغلط مزيلة لعبد اللطيف المقدسي.

واهب المواهب في المقامات والمراتب له وشرحه لابن يونس.

رسالة النور للشيخ آ شمس الدين.

رسالة النور للشيخ أحمد الزاهد في مجلدين.

منح المنة لتلميذه محمد الغمري في ستة مجلدات.

منهج السالك إلى أشرف المسالك لعلي المرصفي.

نزهة الأسرار لمحمد الجمالي.

مصقل القلوب لعبد المجيد السيواسي.

ميار العلوم وشرحه لعمر الفؤادي.

منظومة أحمد القرشي البكرى الراثية.

رسالة كريم الدين الخلوتي.

الرسالة النصحية لطالب الطرق الفتحية لجمال الدين القرماني.

رسالة أطوار السلوك السبعة له.

الرسالة البيرامية للشيخ بيرام الانقروي.

الحجة المنيرة في الطريقة المنيرة للشيخ عمر الحنفي.

الرسالة لطلاب الإيقان للشيخ سنبل أفندي.

حياة الأرواح ونجاة الأشباح للشيخ محمد أفندي الاسكندري.

طريقة محمدية له.

كشف القناع عن وجه السماع له.

رسالة فتح الباب ورفع الحجاب له.

جامع الفضائل له.

الواردات له.

نقلا عن كتاب: النفحات الرحمانية في مناقب رجال الخلوتية للعلامة الكبير الشيخ المكي بن عزوز طيب الله ثراه.

وقد بقي كثير من كتب الطريقة لم نتعرض لذكرها.

الطريقة التجانية

أسسها الشيخ أبو العباس أحمد بن المختار بن أحمد التيجاني، والتيجاني نسبة إلى قبيلة بني توجين التي اسقرت قديما بعين ماضي ومنها تنحدر السيدة والدته عائشة بنت أبي عبدالله محمد بن السنوسي التيجانية.

ولد الشيخ مؤسس هذه الطريقة في عين ماضي الواقعة بالقرب من مدينة الأغواط سنة ١١٥٠ هـ وفيها حفظ القرآن الكريم وتلقى على شيوخها علوم العربية والفقه المالكي. وبعد وفاة والديه في يوم واحد بسبب وباء الطاعون الذي أصاب يومئذ تلك المنطقة غادر المترجم مسقط رأسه متنقلا بين بو سمغول وتوات والأبيض سيدي الشيخ وتلمسان وكان خلال تنقلاته هذه يتصل بالعلماء يأخذ عنهم ويستفيد منهم.

وبعد إقامته بتلمسان شد الرحال إلى المغرب الأقصى حيث حل بمدينة فاس التي كانت ولا تزال حاضرة علم يقصدها طلابه من كل مكان، وفيها التقى بأعلام التصوف فتتلمذ عليهم وأخذ منهم ومن هؤلاء الشيوخ نذكر الشيخ الطيب الوزاني شيخ الطريقة الطيبية وشيوخ الطريقة القادرية والصديقية التي استقر بزاويتها مدة طويلة أخذ خلالها عن شيوخها.

عاد من جديد إلى مدينة تلمسان ومنها توجه إلى البقاع المقدسة لأداء فريضة الحج وفي طريقه اتصل بالصوفي الكبير والعالم الشهير الشيخ محمد بَنْ عبدالرحمن الأزهري فأخذ عنه من فنون الحكمة ما كان في حاجة إليه.

ثم واصل طريقه حيث حل بتونس فاتصل بشيوخها وأخذ عنهم وتابع طريقه إلى القاهرة التي نزل بها ضيفا على الشيخ المربي الكبير محمد الكردي العراقي الذي أذن له بتأسيس الطريقة وتلقين الذكر.

ووصل بعد هذه الرحلة الطويلة إلى مكة المكرمة وأدى فريضة الحج وزار المدينة المنورة على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى السلام وأخذ عن علمائها. وفي مقدمتهم الشيخ محمد بن عبد الكريم السمان الذي أخذ عنه أحزاب الشاذلي والوظيفة الزروقية ودلائل الخيرات والدور الأعلى بعد أن أخذ المسبحات العشر مُشافَهَةً عن شيخه محمد الكردي. وبذلك جمع الشيخ التيجاني خلاصة الطرق الشاذلية والطيبية والرحمانية والناصرية.

وبعد رجوعه إلى الوطن من البقاع المقدسة نزل بتلمسان التي غادرها سنة ١٧٨٢ بسبب مضايقته من طرف باي وهران يومئذ محمد بن عثمان. وأخذ يسيح في الصحراء متنقلا من بلدة إلى أخرى وقد اجتمع خلال تنقلاته هذه بالرحالة المغربي

المعروف الشيخ محمد بن عبدالسلام الناصري الدرعي صاحب الرحلة والموفي سنة ١٨٣٣ الذي تحدث عنه في رحلته قائلا: «أنه في سنة ١٧٨٢ بالقنادسة ورد علينا رجل ينتمي للعلم والصلاح من شرفاء عين ماضي اسمه سيدي أحمد التيجاني رفض سكن بلده بعد تطليق زوجته وانقطاعه للجولان شرقا وغربا. وقدومه الآن كان من تلمسان مزعجا من بعض أمراء الترك بها. زعم أنه أخذ عن السمان المدني وأجازه وأخذ العهد عن الكردي في مصر وتذاكرنا معه في مسائل حتى انجر الكلام بعدم تحسين الظن بمتمربطة الزمان إلخ».

ولم يزل الشيخ التيجاني يتنقل من بلدة إلى أخرى إلى أن حط عصا الترحال بقصر بوسمغول جنوب البيض وفيه أسس الطريقة التيجانية ووضع لها أسسها. وبعد مضاياقته المتكررة من طرف الباي عثمان بن محمد قرر الهجرة مع أهله وأتباعه إلى المغرب الأقصى واستقر به القرار بمدينة فاس حيث لازم جامع القرويين لتدريس علوم الشريعة به ولا تزال السارية التي كان الشيخ يجلس إلى جوارها تدعى إلى يومنا هذا بسارية الشيخ أحمد أبي العباس الماضوي التيجاني. وكان من أعماله التي قام بها بناء زاوية له بمدينة فاس بحي البليدة فاس البالي.

وقد منحه سلطان المغرب مولاي سليمان قصرا (بحوش المرايا) لإقامته الخاصة مع راتب يكفيه ومن معه، وتفرغ الشيخ لنشر

طريقته وبث تعاليمه بين الناس الذين لازموا مجالسه وحلقات دروسه.

وممن أخذ عنه الطريقة بفاس يومئذ العلامة التونسي الكبير الشيخ ابراهيم الرياحي الذي كان يومئذ في سفارة للدولة التونسية لدى البلاط المغربي سنة ١٨٠٣. وقد ألف الشيخ ابراهيم الرياحي رسالة دافع فيها عن الشيخ أحمد التيجاني سماها - مبرد الصوارم والأسنة في الرد على من أخرج الشيخ التيجاني عن دائرة أهل السنة - رد بها على الشيخ علي بن محمد الميلي المصري التي اعترض فيها على الشيخ التيجاني في مسألة تتعلق بصفة الكلام القديم وهي من مسائل علم الكلام.

وللشيخ التيجاني بعض المؤلفات نذكر منها:

الإرشادات الربانية بالفتوحات الإلهية من فيض الحضرة الأحمدية التيجانية وهي شرح لقصيدة الهمزية للبوصيري في مدح الرسول عليه الصلاة والسلام.

جواهر الحقائق في شرح الصلاة المسماة بياقوتة الحقائق والتعريف بحقيقة سيد الخلائق.

وقد تلقاها عنه بعض أتباعه ومريديه أمثال الشيخ علي حرازم والشيخ محمد بن محمد بن المشري السائحي.

كانت وفاته رحمه الله يوم الخميس ١٧ شوال سنة ١٢٣٠ هـ الموافقف لـ ٢٢ سبتمبر ١٨١٥ وشيعت جنازته في مدينة فاس حيث ضريحه في زاويته المعروفة باسمه في حي البليدة تاركا ولدين محمد الكبير ومحمد الصغير.

وقد كتب بعض أصحابه سيرته في كتاب سماه - جواهر المعاني وبلوغ الأماني عن فيض الشيخ التيجاني - ويعرف كذلك بالكناش. وقيل أن هذا الكتاب أملاه الشيخ نفسه وهو من أهم المصادر التي تجمع أخبار هذه الطريقة. وهناك أيضا معجم يضم أسماء أعوان الطريقة التيجانية عنوانه - كشف الحجاب عمن إلْتقى مع التيجاني من الأصحاب - ألفه أبو العباس أحمد العياش سكيرج رحم الله الجميع وغفر لنا ولهم.

وللطريقة التيجانية فضل كبير في نشر الإسلام ببلاد السودان والسينيغال والقابون والكونغو وغينيا وفي الصحراء الكبرى ومصر وبلاد العرب وبعض أجزاء آسيا، ومن أبرز أعلام هذه الطريقة الذين عملوا على نشرها وجاهدوا في سبيل الدعوة الإسلامية جهادا حقيقيا، والذين وقفوا إلى جانب الشيخ التيجاني وساعدوه وأزروه نذكر الحاج عمر المولود بالسينيغال سنة ١٧٩٧ والمتخرج من الجامع الأزهر الشريف.

هذا الداعية الكبير نشر الإسلام ودعا إلى عقيدة السلف الصالح بالحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالتي هي أحسن بمشاركة أخيه أحمد وذلك في بورنو وبلاد الهاوسة بحيث استطاع أن يكوّن جيشا من الأتباع والمريدين حارب به الوثنيين والملاحدة فهزمهم شر هزيمة، ولم يمت سنة ١٨٦٥ إلا بعد أن ترك للإسلام سلطة عظيمة في إفريقيا.

وهنا تحضرني كلمة رائعة لأحد المؤرخين يقول فيها: «أن افريقيا كادت تكون كلها مسلمة لولا قضاء فرنسا على سلطة التيجانية كما أن أروبا كادت تكون كلها مسلمة لولا انتصار شارل مارتيل على العرب في موقعة بواتي». ونحن نقول أن الإسلام بحمد الله وعونه لا يتوقف زحفه، وانتشاره، رغم كل المؤامرات والمكائد التي تحاك ضده، ولن يوقفه انتصار شارل مارتيل في أروبا ولا محاولات الاستعمار في افريقيا وهذا وعد من الله ولن يخلف الله وعده.

أما بالنسبة لأتباع الطريقة التيجانية المعروفين بالأحباب فإن تعاليم الطريقة تمنع عليهم الإنخراط في سلك طريقة أخرى، ومن المعلوم أن أهم مراكز التيجانية هي عين ماضي حيث توجد الزاوية الأم، تأتي بعدها تماسين ثم الأغواط وسوف وورقلة وتوقرت.

وذكر - رين - في إحصاء رسمي لسنة ١٨٨٢ أن عدد الزوايا التيجانية في الجزائر بلغ ١٧، و١٠٠ مقدم، و١١٠٨٢ مريدا.

الطريقة السنوسية

تنسب هذه الطريقة لمؤسسها الإمام الصالح محمد بن علي السنوسي الخطابي الحسن الإدريسي، وهو سليل أسرة تمتد جذورها إلى ملوك الأدارسة مؤسسي الدولة الإدريسية بالمغرب. وقد نشأ المترجم له في بيت علم ودين وصلاح معروفة بمدينة مستغانم ببيت آل عبدالله الخطابي نسبة إلى الشيخ عبدالله خطاب الشلفي المجاهري.

وقد ولد في الثاني عشر من ربيع الأول ١٢٠٢ هـ الموافق لـ ٢٢ ديسمبر ١٧٨٧م ببلدة يلل المعروفة بنواحي مستغانم والقريبة من غليزان وسبب اشتهار هذا البيت الكريم بالسنوسي يعود إلى جدهم الذي لقب نفسه بذلك تبركا بالشيخ الإمام محمد بن يوسف السنوسي صاحب التآليف المعروفة وعالم تلمسان المشهور.

حفظ القرآن الكريم وتلقى دراسته الأولى في معسكر ومازونة وتلمسان على كبار الشيوخ وقتئذ، أمثال الشيخ محمد بوراس عالم معسكر وصالحها، والشيخ محي الدين بن شهلة، والشيخ محمد بن عبدالقادر بن أبي روبنة والشيخ ابن القندوز صاحب

المواقف الشهيرة من الحكام والذي قتله حسن باي سنة ١٨٢٩ نتيجة مواقفه المشرفة من الحكام في وقته.

وكان مترجمنا معروفا بحبه للتنقل والأسفار في طلب العلم، والاطلاع على أحوال المسلمين التي كانت في تدهور مستمر، وهكذا عقد العزم على الرحيل إلى مدينة فاس التي كانت قبلة طلاب العلم والمعرفة، وكان جامع القرويين بها يعج بكبار العلماء فدرس به علوم الشريعة، واللغة العربية، والمذاهب الإسلامية والفلسفة والمنطق والفلك وغيرها من العلوم والفنون وبقي بها سبع سنوات من ١٨٢٢ إلى ١٨٢٩. كما كانت رحلته إلى فاس فرصة للاجتماع بكبار شيوخ التصوف والأخذ عنهم أمثال الشيخ العربي بن أحمد الدرقاوي الذي تلقى عنه الطرق الصوفية كالقادرية والشاذلية والدرقاوية والناصرية والجزولية والزيانية والتيجانية، ونال الإجازة، وحصل على المشيخة الكبرى وعين مدرسا بجامع القرويين اعترافا بمكانته العلمية.

غادر الإمام السنوسي مدينة فاس مودعا من طرف علمائها وشيوخها عائدا إلى موطنه الجزائر حيث شرع في التجوال كعاداته في أنحاء الصحراء الجزائرية متوقفا في العديد من المدن كالأغواط والجلفة ومسعد التي تزوج بها وعين ماضي وبوسعادة التي استراح فيها قليلا ليواصل فيها رحلته نحو المشرق مرورا بتونس فالقيروان وطرابلس وبرقة فالقاهرة فمكة

المكرمة التي حط بها الرحال ليجتمع بالكثير من علمائها ويطلع على حركة الإصلاح الوهابية، ثم انتقل إلى عسير التي التقى فيها بالإمام أبي العباس أحمد بن عبدالله الإدريسي الفاسي الذي كان على رأس طريقة صوفية هناك تدعى الطريقة الخضيرية ولازمه الإمام السنوسي إلى أن انتقل الشيخ إلى جوار ربه سنة ١٨٣٥ ، فبايع أتباعه ومريدوه الإمام شيخا لطريقتهم التي أصبحت فيما بعد تعرف بالسنوسية.

عاد إلى مكة ليؤسس بها سنة ١٨٣٧ أولى زواياه في جبل أبي قبيس. ومما يسجل لهذا الإمام العظيم وهو بمكة موقفه التاريخي من تلك الفتوى التي خطط لها الاستعمار الفرنسي بالجزائر وأوفد من أجلها الجاسوس المعروف ليون روش على رأس جماعة من المسلمين الجزائريين إلى القيروان ومصر والحجاز لموافقة العلماء عليها، وجاء في هذه الفتوى ما معناه يجب على المسلمين إيقاف معركة الجهاد ضد الغزاة إذا علموا أنهم لا يستطعون التغلب عليهم، وأن مواصلة الجهاد والحالة هذه تعد انتحارا يجب الابتعاد عنه وأنه يجب الرضى بقضاء الله وقدره في هذه الحالة.

وفعلا فقد وافق عليها علماء القيروان والأزهر والحجاز ولكن العالم الوحيد من بين علماء الحرم الذي حضر المجلس العلمي التابع لأمير الحجاز وعارض الفتوى ولم يوافق عليها إنما هو

الشيخ محمد بن علي السنوسي كما ذكر الجاسوس ليون ورش. وكان ذلك سنة ١٨٤٢.

غادر الإمام الحجاز بعد زيارة اليمن عائدا إلى أرض الوطن ولما وصل إلى مدينة قابس بالجنوب التونسي علم بمساعي الفرنسيين الجادة للقبض عليه فعاد من حيث أتى ليستقر به المقام ببرقة. وقد كان اختياره لها موقفا مصيبا حيث تعتبر تلك المنطقة مكانا استراتيجيا لوقوعه وسط الأقطار التي عزم على نشر دعوته بين سكانها، وبث أفكاره وتعاليمه بينهم.

وفي الجبل الأخضر قريبا من درنة أنشأ الإمام زاويته التي عرفت بالزاوية البيضاء، وهي الزاوية الأم، وقد سميت بذلك لبياض جدرانها وقد تحولت بمرور الوقت إلى مدينة تعرف بمدينة البيضاء وقريبا منها مقام الصحابي الجليل سيدي رافع الأنصاري رضي الله عنه، الذي كان ممن شاركوا في الفتح الإسلامي لهذه الديار.

وقد اختار الإمام لبناء الزاوية البيضاء مكانا بعيدا عن المخاطر الخارجية التي كان دائما يتوقعها ويعد العدة لها عملا بقوله تعالى: «وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم» (الآية ٦٠ من سورة الانفال). وقد كان فعلا ما

توقعه الإمام من غزو البلاد الليبية من طرف الاستعمار الإيطالي، وهذا دليل واضح على عمق تفكير الرجل، وبعد نظره.

لذلك كانت الدول الأروبية وفي مقدمتها فرنسا وبريطانيا تعتبر السنوسية ومؤسسها العدو الأول لها في افريقيا وكانت فرنسا تحرض الخلافة العثمانية التي كانت يومئذ تلفظ أنفاسها الأخيرة لمحاربة السنوسية والقضاء عليها كما فعلت مع الحركة الوهابية في الحجاز، وكانت الدول الأروبية تعلن أن الطريقة السنوسية خطر على الخلافة العثمانية قبل أن تكون خطرا عليها وذلك قصد إثارة الفتنة وإشعال فتيل الحرب والاقتتال بين المسلمين.

وقد ظلت الدول الاستعمارية تشن حملاتها الصحافية على الطريقة السنوسية وتعلن عن تخوفها منها، وأنها تهدد مصالحهم وهذا منذ تأسيسها إلى أن دخلت في معارك حقيقية مع الاستعمار الإيطالي دامت قرابة نصف قرن من الزمن.

وواصل الإمام السنوسي إنشاء الزوايا في العديد من نواحي القطر الليبي، ونقل مقر زاوية البيضاء إلى الجغبوب التي أنشأ بها أكبر الزوايا السنوسية سنة ١٨٥٦م بعد أن ازدهرت دعوته وانتشرت تعاليمه لتعم كل أرجاء ليبيا فأخذ الحكم القائم يومئذ يشعر بخطر هذه الحركة السنوسية ويعمل على القضاء عليها، واخماد

أنفاسها قبل أن تشتد شوكتها، وتجنبا لكل صدام ومغامرة لا يعلم عواقبها إلا الله، قرر الإمام المعروف بنظرته الحميمة وتفكيره البعيد نقل مركز دعوته إلى الجغبوب في قلب الصحراء بعيدا عن نفوذ الحكم القائم وبعيدا عن كل مراكز الرقابة التي أقامها الاستعمار لترصد تحركات الإمام وأتباعه وتراقب نشاطه، وتحاصر دعوته.

وبانتقال الإمام السنوسي، طيب الله ثراه، إلى الجغبوب التي كانت فيما مضى واحة يقطنها اللصوص، ويقصدها قطاع الطرق، فأصبحت بعد انتقال السنوسية إليها مكان أمن وطمأنينة وسلام. وفيها بدأ الإمام مرحلة جديدة من مراحل نشاطه تتمثل في الإعداد الجاد لكل الطوارئ، وبدأ تدريب الإخوان على صناعة السلاح واستعماله في الوقت المناسب للدفاع عن أوطان الإسلام والمسلمين. وهكذا لأول مرة في التاريخ، تشهد الجغبوب جيشا من جنود الطريقة السنوسية المجاهدة يحمل السلاح، لا ليقطع الطريق ويتعرض للذين لا حول لهم ولا قوة كما تعودت من قبل ولكن ليحارب به الغزاة المعتدين أعداء الشعوب، المتحكمين في رقابها، المتسلطين على حريتها وسيادتها.

والجانب النضالي والاستعداد للمعركة ضد الاستعمار لم ينسه المهمة الرئيسية للزاوية والمتمثلة في نشر العلم والمعرفة ومحاربة الجهل والأمية في أوساط الجماهير لذلك أنشأ بالزاوية مكتبة علمية ضخمة تضم ثمانية آلاف مجلد في الفقه الإسلامي

والتفسير والحديث والتاريخ والأدب والفلك وغيرها من مختلف العلوم والفنون.

وهكذا لم تطل مدة إقامته بالجغبوب حتى لبى داعي ربه[1] ورجعت تلك النفس المطمئنة إلى ربها راضية مرضية، الجغبوب التي جعل منها مأوى للعلم، والدين، والصلاح، وطهرها من أعمال الشر والجريمة والفساد.

وللإمام السنوسي مؤلفات علمية قيمة تفوق الأربعين كتابا ورسالة مختصرة نذكر منها:

ايقاظ الوسنان في العمل بالحديث والقرآن (وفيه دعوة من مؤلفه لفتح باب الاجتهاد).

بغية السول في الاجتهاد والعمل بحديث الرسول.

السلسبيل المعين في الطرائق الأربعين.

الدرر السنية في أخبار السلالة الإدريسية.

المنهل الروحي الرائق في أسانيد العلوم وأصول الطرائق.

---

[1] كانت وفاته رحمه الله يوم الأربعاء، التاسع من صفر سنة ١٢٧٧هـ الموافق لـ ٧ سبتمبر ١٨٥٩م ودفن بمقامه المعروف بالجغبوب.

البدور الساحرة في عوالي الأسانيد الفاخرة.

الكواكب الشارقة في أسانيد بعض شيوخها المغاربة والمشارقة.

السلسل المعين في السلاسل الأربعين.

نزهة الجنان في أوصاف تفسير القرآن.

منظومة السلوك إلى ملك الملوك.

لوامح الخذلان على من لا يعمل بالقرآن.

الكواكب الدرية في أوائل الكتب الأثرية.

التحفة في أوائل الكتب الشريفة.

سوابغ الأيدي بمرويات أبي زيد.

هذه عناوين بعض الكتب والرسائل التي ألفها الإمام السنوسي وهي إن دلت على شيء فإنما تدل على مدى تبحر الرجل في مختلف العلوم والفنون وعلى أنه كان بحق من رجال السيف والقلم وقد كتب لبعض هذه العناوين أن يطبع، بينما بقي البعض الآخر دون طبع. وقد شهد له بالفضل والعلم والحكمة كبار العلماء والمفكرين من الأجانب، فقد قال عنه ايفانز بريتشارد في كتاب ـ السنوسيون في برقة ـ: «أن السيد محمد بن علي السنوسي كان رجلا عظيما وأن عمل حياته كان إنجازا رائعا». ويقول عنه

آدفر: «كان السنوسي الكبير ذا مظهر متميز، طويل القامة، متكلما فصيحا، ومعلما حكيما». وقال عنه أيضا: «لم يكن السنوسي الكبير عالما كبيرا، ومؤلفا بارزا فحسب، بل كان مغرما بالكتب أيضا، لذا نجده يمتلك مكتبة طيبة تحوي ثمانية آلاف مجلد».

لقد عرف المغرب العربي الكبير انتشارا واسعا للطرق الصوفية المختلفة، وقد استطاع الإمام السنوسي باحتكاكه ببعضها، واجتماعه بشيوخها، أن يستفيد منها الكثير الذي يساعده على اكتشاف مواطن القوة والضعف فيها مما جعله يعيب على بعضها اهتمامها بالجانب الروحي وحده، وانحراف البعض عن الصراط السوي الذي سار عليه أئمة التصوف وشيوخه الأولون.

لقد استفاد الإمام من ذلك كله في تأسيس طريقته على أساس الكتاب والسنة وكان رحمه الله يقول: «أعلم أن سبيل القوم اتباع النبي صلى الله عليه وسلم من الجليل والحقير، وأعمالهم موزونة بميزان الشريعة». وقد تحدث بريشارد عن الطريقة السنوسية فقال: «ومن بين جميع الطرق الصوفية، كانت السنوسية أكثرها تمسكا بالسنة».

ومن الأهداف الروحية التي تعمل الطريقة السنوسية على تحقيقها، ويسعى مريدوها بفضل قراءة الأوراد الوصول إليها هي الاتصال المباشر بين المريد والرسول عليه الصلاة والسلام وهي

بذلك تخالف بعض الطرق الصوفية الأخرى في دعواها للاتحاد مع الله وهو ما لم يؤمن به شيوخ السنوسية ومريدوها.

أما عن أوراد الطريقة السنوسية فتتلخص في تلاوة القرآن الكريم وهي أفضل عبادة كما ورد في الحديث: «أفضل عبادة أمتي تلاوة القرآن»، ثم الاستغفار والتهليل والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم. وهناك مجموعة أخرى من الأوراد التي يواظب المريدون على قراءتها وهي موزعة على أيام الأسبوع نذكر منها: الحزب السيفي، والحزب المفني، ودعاء الاختتام بعدهما، وحزب النور الأعظم والكنز المطلسم وحزب التجلي الأكبر والسر الأفخر والأوراد الأحمدية. وكل هذه الأوراد من تأليف أحمد بن إدريس إلا حزب السيفي فقد عزاه بعضهم إلى الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه.

وأتباع الطريقة السنوسية ومريدوها يؤمنون بأن الإمام السنوسي كان على اتصال برسول الله صلى الله عليه وسلم مباشرة، وقد ذكر الإمام بأن الرسول أمره بتأسيس الزوايا والدعوة إلى الله.

وبعد وفاة الإمام تولى رئاسة الطريقة السنوسية من بعده ولده محمد المهدي بمساعدة مجلس وصاية ثم تولاها بنفسه مباشرة إلى أن لقي ربه سنة ١٩٠٢ وقد ولد محمد المهدي بماسة بالجبل

الأخضر في ذي القعدة من عام ١٢٦٠هـ الموافق لـ نوفمبر ١٨٤٤ ودامت مدة رئاسته للطريقة أربعين عاما تقريبا.

وقد تسلم محمد المهدي رئاسة الطريقة في ظروف جد صعبة فقد كان للانتشار الواسع الذي حققته السنوسية، وتمركزها على أماكن ذات أهمية استراتيجية في افريقيا الأثر السيئ العميق في نفوس الدول الأوروبية الاستعمارية التي تخطط في الخفاء لتقسيمها فيما بينها، ومحاولة كل دولة الفوز بنصيبها منها. وكانت في مقدمة تلك الدول بريطانيا التي احتلت مصر والسودان، وفرنسا التي استولت بدورها على أقطار المغرب العربي وإيطاليا التي ترك لها احتلال ليبيا.

وكان على الشيخ محمد المهدي السير على نهج والده في نشر الدعوة، والعمل على تشييد الزوايا، وهذا ما وقع فعلا فقد تحمل المسؤولية وكان أهلا لها وجد الشيخ المهدي في انشاء الزوايا وتوسيعها وتنظيمها وحسن سيرها وإعطائها كل ما تستحقه من عناية واهتمام حتى بلغ عدد الزوايا التي أنشأها المائة.

وبالإضافة إلى قيام تلك الزوايا برسالتها المقدسة في نشر العلم وتحفيظ القرآن الكريم، والدعوة إلى الإسلام، أخذ الجانب العسكري فيها حيزا كبيرا يقول لوي رين القائد الفرنسي: «إن السنوسيين بهذه الزوايا كانوا على أهبة الاستعداد، فكان كل

رجل منهم مزودا بالسلاح الكامل، وربطوا بين جميع هذه الزوايا المتفرقة والبعيدة برباط متين من المخابرات وفق نظام دقيق تلتقي أسبابه عند زاوية الجغبوب الكبرى». وقد صدق الشاعر الجزائري الفحل محمد العيد آل خليفة رحمه الله إذ يقول:

إن السنوسيين شهب دجنة وعتاق ميدان وأسد نزال

إن البطولة في الوغى عهد لهم عهدت به الآباء للأطفال

وبما أن الزوايا السنوسية كثرت وانتشرت في العديد من الأقطار العربية والإسلامية بدأ من الجزائر وتونس وفاس وبرقة ومصر والحجاز واليمن والسودان وتوات وتركيا والهند، فقد أصبحت التقارير الواردة من مختلف الوكلاء في تلك البلاد القاصية البعيدة تصل إلى بني غازي لترسلها هذه إلى زاوية الجغبوب الأم على جناح السرعة.

وهكذا وبفضل حنكته وحكمته ونظره الثابت، وجده واجتهاده في العمل، كما كان والده الإمام من قبل عرفت الطريقة السنوسية في عهده قوة كبيرة وأصبح لها بين الشعوب والقبائل الإفريقية المكانة المتميزة جعلتها تفرض الأمن وتوفره في الطرق التي كان التنقل فيها مغامرة تؤدي بصاحبها إلى الموت المحقق.

وأصبحت بفضل الطريقة السنوسية تنعم بالأمن والهدوء والطمأنينة وأصبحت القوافل التي تحمل جوازات مرور موقعة من

شيوخ الزوايا السنوسية لا تتعرض لأي أذى من طرف قطاع الطرق وبذلك أصبحت الطريقة السنوسية المتحكم الوحيد في تلك المناطق مما جعل الدولة العثمانية وقتئذ تعترف لها بالسيادة عليها وبذلك تحولت السنوسية من طريقة دينية بحتة إلى دولة إسلامية استمرت في الحكم إلى غاية ١٩٦٩ تاريخ إعلان الجمهورية من طرف العقيد معمر القذافي.

الدور الجهادي للطريقة السنوسية في نشر الإسلام ومقاومة الاستعمار:

الطريقة السنوسية طريقة إصلاحية تجديدية تأثر مؤسسها بالحركة الوهابية التي قامت في أرض الحجاز في النصف الثاني من القرن الثامن عشر الميلادي لصاحبها محمد بن عبدالوهاب قدس الله روحه، وتهدف السنوسية فيما تهدف إليه إلى نشر الإسلام وإصلاح عقيدته مما علق بها من أنواع البدع والضلالات. وقد كان لها الأثر الكبير في نشر الإسلام والدفاع عن حياضه في القارة الإفريقية.

وبفضل حصافة مؤسسها الإمام السنوسي استطاعت السنوسية تحقيق هدفها في تأسيس دولة إسلامية كانت تتويجا مشرفا

لجهاده وجهاد أتباعه ومريديه بينما لم تثبت حركتا الوهابية في الحجاز والمهدية في السودان بل سقطتا.

ولعل من أسباب نجاحها التزام كل أفرادها من أتباع ومريدين بالطاعة والولاء لشيوخها، وتقيدهم بتعاليم الكتاب والسنة وعدم الانحراف عنها. ومن مظاهر الولاء والطاعة لتعاليم الطريقة فقد أوجب الأتباع والمريدون على أنفسهم الامتناع عن التدخين وشرب القهوة ليتبرعوا بنفقاتها على الجماعة التي تصرفها في مشاريع خيرية اجتماعية وعسكرية كما ألزموا أنفسهم بوقف كل أعمالهم ونشاطهم على خدمة الإسلام وقضايا المسلمين وعاهدوا الله على المقاومة المستمرة لأي لون من ألوان الخضوع للنفوذ الأجنبي.

وقد استطاعت الزاوية المركزية بالجغبوب أن تخرج كل عام المئات من الدعاة الذين ينتشرون في القارة الإفريقية وفي بلاد العرب يبشرون بالإسلام وينشرون دعوته في أوساط الشعوب المختلفة انطلاقا من شمال إفريقيا إلى أواسطها حتى بحيرة تشاد ومن سواحل الصومال شرقا إلى السينيغال غربا حيث استطاع أولئك الدعاة الرواد من السنوسيين تخليص الأطفال الأرقاء بشرائهم من القوافل التي كانت تمارس التجارة بالرقيق والقادمة من السودان قصد السهر على تربيتهم تربية إسلامية في الزوايا السنوسية على أساس منهج تربوي تعليمي أعد إعدادا

دقيقا خصيصا لذلك ليعودوا بعد ذلك إلى بلدانهم لدعوة أقوامهم إلى الإسلام وإخراجهم من الظلمات إلى النور.

وهكذا أصبحت عدة قبائل إفريقيا، كانت من قبل تدين بالوثنية بعد أن اتصل بها دعاة السنوسية، من المسلمين المتحمسين وهو ما تمَّ مع قبيلة بيلي و شعب التيدا في جنوب واحة فزان وفي بلاد الحبشة وفي وادي غربي بحيرة تشاد. وهكذا دخل ملايين الأفارقة إلى الإسلام عن طريق الدعوة السنوسية خصوصا في النيجر والكونغو والكامرون.

هذا بإيجاز عن دورها في التبشير بالإسلام وأما عن دورها في الجهاد فقد قامت السنوسية بدور عظيم وحققت عملا جبارا امتد قرنا وأكثر، حرر ليبيا من الغزو الاستعماري الإيطالي، ووقف سدا منيعا في وجه كل المحاولات والأطماع الاستعمارية وقدم قوافل من الشهداء الأخيار وفي مقدمتهم البطل الشهيد عمر المختار خريج الطريقة السنوسية وأحد مقدميها. وقد صمدت السنوسية خلال فترة المقاومة الطويلة صمودا أدهش الأعداء وأقض مضاجعهم وحسبوا لها ألف حساب حتى حاولوا بشتى وسائل الإغراء والترغيب استمالتها وكسبها فلم يجدوا من شيوخها الأبطال الأشاوس إلا الصدود والإعراض والابتعاد.

ولما تولى أحمد الشريف رئاسة الطريقة السنوسية بعد وفاة المهدي، وكان ذا كفاءة وخبرة بما يجري في عالمه أنذاك فقام بدور كبير في مقاومة الاستعمار الإيطالي من سنة ١٩٠٢ إلى ١٩١١ تاريخ اعتزاله رئاسة الطريقة وترك المكان للأمير إدريس السنوسي الذي أصبح فيما بعد ملكا على ليبيا والذي سار على نهج أسلافه في الدين والورع والتقوى والصلاح والجهاد وهي صفات يشهد له بها أصدقاؤه وأعداؤه، كافح من أجل حرية وطنه وشعبه ووقف، طيب الله ثراه، حياته وأحواله لخدمة القضايا الإنسانية العادلة وقضايا الأمة العربية الإسلامية بصفة خاصة.

ومواقفه المشرفة الخالدة من ثورة التحرير الجزائرية المباركة لا تنسى ودعمه المادي والمعنوي للجهاد والمجاهدين يسجل له بأحرف من ذهب ووقوفه إلى جانب الجزائر في كل المناسبات يعترف له به العام والخاص وقد حدثني عنه مؤرخ الجزائر الكبير الأستاذ أحمد توفيق المدني رحمه الله فأثنى على مواقفه الثناء الكبير وقد سألت عنه الأخ الرئيس أحمد بن بلة حفظه الله فأجابني بمثل ذلك.

وأترك لفقيدنا الراحل أحمد توفيق المدني المجال ليحدثنا عنه ويصفه بقلمه الرائع في مقابلة له مع وفد جبهة التحرير الوطني سنة ١٩٥٦ والثورة المباركة في عهدها الأول، يقول رحمه الله:

«أدخلنا التشريفاني وكان مكتبه عند الباب، دارًا متواضعة جد التواضع ليس بها أي شيء من رونقِ الحياة ولا من أبهة الإمارة ولا من حركة الملك كان السكون مخيما بصفة مخيفة، رهيبة ثم أدخلنا غرفة لا تتجاوز مساحتها ٣ x ٤ مترا وكان الملك بلباسه العربي وشاشية التونسية ذات الرز الغليظ يجلس جانبا فوق أريكة متواضعة سوقية وأمامه منضدة صغيرة وحوله عدد من الكراسي، جلست على واحد منها تجاهه وجلس الشيخ عمر دردور عن يميني وجلس الدكتور محمد الأمين دباغين عن شمالي.

تكلم الملك مرحبا كان صوته رقيقا جدا، كانت عبارته بسيطة سهلة لكننا كنا ونحن نسمع إلى كلماته نلمح من خلال حديثه ذكاء وقادا وإيمانا صادقا وعزيمة جهادية متينة العود. وأجبته وذكرت كفاح الجزائر بما يستحقه من تقدير وعرجت على آمال المجاهدين فيه وخاصة من حيث مرور السلاح حرا إلى الجزائر عن طريق ليبيا.

وكان يجيب عن كل قضية أذكرها جوابا فوريا لطيفا حاسما وكان حديثه وكانت جواباته تحوم حول النقط التالية:

أولا: إن الجهاد في الجزائر ليس جهادا جزائريا بل هو جهاد إسلامي عام فمن كان مستطيعا ولم يشارك فيه فقد خان الله ورسوله.

ثانيا: إن ليبيا ملكا وحكومة وشعبا لا تؤيد الكفاح التحريري الجزائري فقط، بل هي تشترك فيه روحا وبدنا ولو أن ثورتكم فتحت أبوابها لقبول المتطوعين لرأيتم أن رجال ليبيا ربما فاق عددهم في جيش التحرير عدد الجزائريين.

ثالثا: إن الرئيس مصطفى بن حليم قد أطلعه على تفاصيل مذاكراتنا معه واتفاقنا في قضية المطارات بين أيديكم الآن فمى أتم الأخصائيون المصريون إصلاحها فهي مطارات جزائرية وما علينا إن علمت فرنسا بذلك، أما السلاح الجزائري فقد أصدرت أمرا لقائد الجيش وهو أصدر أمرا لقائد الحدود بأن يدخل حرا طليقا لا يعترض عليه معترض وأن خذوا حذركم كي لا يطلع على ذلك ما هو موجود من جواسيس مختفين عندنا.

رابعا: اعتبروا حكومة ليبيا حكومتكم الخاصة، ما طلبتموها في إعانة أو من سعي إلا قامت به وبأمر مني بكل سرعة وبأكثر ما لدينا من قوة ومن جهد وما أردتم أن تتوسط لكم في شراء سلاح أو في مسعى سياسي أو ديبلوماسي إلا كانت مستجيبة لكم فورا.

هذه بغاية الدقة وبدون أن أترك فكرة أو معنى هي خلاصة جواب الملك كما حررتها فور خروجي، مما يدعي بالقصر. وكان الملك يأبى أن يخاطب بلقب صاحب الجلالة لأن صاحب الجلالة

هو الله وحده يقول أما لقبي الرسمي فهو السيد إدريس السنوسي لا غير ولا أرضى أن أخاطب بصيغة أخرى.

خرجنا ونحن مبتهجون حقا بتلك المقابلة الحاسمة أما الشيخ عمر دردور الفاضل فقد سالت عَبَراته تأثرا وأما الدكتور الأمين الدباغين فقال أنه قَلَّما تأثر من روعة موقف ومن إيجابيته كما تأثر ذلك اليوم أما أنا فقد رأيت المجاهد على حقيقته ونسيت مثواه تحت حماية أسطول الإنجليز وقلت في نفسي: "لعل له عذرا وأنت تلوم".

ورجعنا فائزين من تلك المقابلة الملكية الثرية[1] » اهـ.

الزوايا السنوسية:

تختلف الزوايا السنوسية في مهامها ووظائفها عن الزوايا المعروفة منذ زمن بعيد فهي كما خطط لها مؤسسها الإمام السنوسي زيادة على رسالتها المتمثلة في التربية الروحية والتعليم وبعض الأعمال الخيرية والاجتماعية فهي مؤسسات لتكوين الدعاة، ومراكز عمل وجهاد يدرب فيها الأتباع في كل يوم

---

[1] الجزء الثالث من حياة كفاح للأستاذ أحمد توفيق المدني.

جمعة على استعمال السلاح، وتعقد لذلك مسابقات تخصص فيها الجوائز للفائزين، كما يتعلم فيها الفروسية والرماية وركوب الخيل، كما تعلم فيها مختلف الصناعات كالنجارة والحدادة والسباكة والنساجة والزراعة وغرس الأشجار.

لقد كان الإمام السنوسي يولي لهذه الزوايا اهتماما كبيرا وعناية خاصة يختار لبنائها الأماكن الاستراتيجية ويوزعها توزيعا مبنيا على تخطيط دقيق روعيت فيه ظروف السلم والحرب، بحيث تبعد كل زاوية عن التي تليها بمسافة ست ساعات حتى إذا داهم الخطر إحداها، ينتقل الأتباع إلى التي تجاورها. يقول بريتشارد عن موقع الزوايا: «إن من يدرس توزيع الزوايا السنوسية في برقة يلاحظ أنها أقيمت وفق خطة سياسية اقتصادية». ويتحدث عنها الأمير شكيب أرسلان قائلا: «إن أغلب هذه الزوايا تختار لها أجمل البقع وأخصب الأراضي وفيها الآبار التي لا تنزح من كثرة مائها وفي الجبل الأخضر هي بجانب عيون جارية وأنها صافية قل إن مررت بزاوية ليس لها بستان أو بساتين فيها من كل أنواع الفواكه؟».

إذنْ فالزوايا السنوسية كانت بيوتا للعبادة ومدارس للعلم ومحاكم لفض الخصومات بين الناس والحكم فيها بعدل الإسلام ومراكز تزدهر حولها الزراعة والصناعات المختلفة وتحيط بها تجمعات سكنية تجعل البدوي يألف حياة الاستقرار ليرتبط

بالأرض ويحرس على بقائه فيها إذا ما داهمه الخطر الذي كان الإمام رحمه الله يتوقعه ويعد العدة له.

وتتكون الزاوية السنوسية من بيت خاص لإسكان شيخها وبيوت خاصة بالضيوف وبوكيل الزاوية وبمعلم الأطفال والمسجد للصلاة والوعظ والإرشاد والمدرسة القرآنية ومعهد لتدريس العلوم الإسلامية ومساكن للطلاب الغرباء ومكتبة علمية بالإضافة إلى مساكن للعمال ومخازن لحفظ المؤن ومتجر وفرن وحجرة خاصة بالفقراء الذين لا مأوى لهم. فهي مركز اشعاع ثقافي يجمع فيه بين العبادة والعمل والتعلم والدعوة الى صلاح شؤون الإسلام والمسلمين.

أما عن الموارد المالية للزاوية السنوسية فمصدرها الزراعة وتربية المواشي والهبات وجباية الزكاة وهذا بعد أن أعفت السلطات العثمانية الزوايا من دفع الضرائب وأعطت لها الحق في جبايتها وهذا لأغراض سياسية بحتة قصد استمالتها وكسب مؤازرتها ودعمها.

أما عن تسييرها والإشراف على إدارتها فيعود لشيخ الزاوية المسؤول الأول ومجلس يضم وكيل الزاوية وشيوخ وأعيان القبيلة الموجودة بها. ويطلق على شيخ الزاوية ـ المقدم ـ كما يقول شكيب أرسلان: «وهو القيم على الزاوية الذي يتولى أمور القبيلة

ويفصل الخصومات ويبلغ الأوامر الصادرة من رئيس النظام، ويليه وكيل الدخل والخرج وإليه يعود النظر في زراعة الأراضي وفي جميع الأمور الاقتصادية».

ولم يلتحق الإمام السنوسي بالرفيق الأعلى حتى بلغ عدد الزوايا ٥٢ منها في ليبيا ٣٧ وخارج ليبيا ١٥ منها ستة في الحجاز و ٣ في مصر وواحدة في تونس ويذكر أشهب: «أن هذه ليست كل الزوايا التي بنيت في عهد السنوسي».

إذن، فقد كان للزوايا السنوسية سلطان كبير على المناطق المتواجدة بها. فللمقدم والوكيل سلطة على أهل الزاوية جميعا والقبيلة كافة فإذا صَدَر الأمر من أحدهما باسم السيد السنوسي فإن طاعته واجبة على الجميع.

السنوسية في الجزائر

يقول الأستاذ أنور الجندي: «إذا كانت الطريقة السنوسية قد بدأت خطواتها في برقة فإنها بدأت فعلا من الجزائر ولم يتوقف امتدادها منذ ظهورها حتى شملت المغرب العربي كله وتخطته إلى الجزيرة العربية وغيرها. وذلك أن محمد علي السنوسي كان جزائريا أصيلا ولد في مستغانم وكان قد تخطى الأربعين عندما

احتل الفرنسيون بلاده، وكان هذا الحادث هو نقطة البدء في عمله الضخم». اهـ.

نعم لقد ولدت السنوسية في الجزائر ومنها انطلقت انطلاقتها الموفقة، وتمكنت من التمركز والانتشار بالرغم من مضايقات الاستعمار الفرنسي لها لأنه كان يعتبرها خطرا عظيما عليه وكان يشرف على رئاستها في القطر الجزائري الشيخ أحمد الشارف بن تكوك رئيس قبيلة المجاهر نواحي مستغانم والتي ينتسب إليها الإمام السنوسي. ولا تزال زاويتها قائمة إلى يومنا هذا في مدينة مستغانم ويتولى مشيختها أحد أفراد أسرة الشيخ ابن تكوك وقد زرناها وتحادثنا مع شيخها الذي قابلنا مقابلة طيبة غير أننا لم نجد عنده من المعلومات ما يفيدنا في بحثنا فودعناه شاكرين له حسن الاستقبال.

هذه كلمة موجزة عن الطريقة السنوسية التي حملت لواء الجهاد بالسيف والقلم فقاومت أعداء العروبة والاسلام، وحاربت الاحتلال الإيطالي، وكان لها مع الإروبيين المستعمرين صولات وجولات، وفرضت هيبتها واحترامها على الخلافة العثمانية، رحم الله مؤسسها وشيوخها وأتباعها الذين جاهدوا في الله حق جهاده. وللشريف أحمد السنوسي كتاب ضخم في تاريخها.

ونختمها بهذه القطعة الشعرية الرائعة للأمير شكيب أرسلان في مدح السنوسية:

لا يرى العلم في سوى العمل الصالح فالعلم آلة ووعاء
فلهذا نرى الطريق السنوسي على الفعل قام منه البناء
بات فعلا هدى مريد السنوسي وأن ليس بالكلام اكتفاء
كلهم عالم لذلك فيهم تتبارى العقول والأعضاء
كم تولى بالكف سكة حرث حَبْرَ علم حظت به القراء
حققوا سنة المعلم للخير الرسول الذي به الاقتداء
بث ما بين مطلع الشمس والمغرب رشدا أضاءت به الأرجاء
وزوايا في كل غور ونجد ليس يستطيع حصرها الإحصاء
وبدا بالبناء في الجبل الأخضر حيث البناية البيضاء

مجتهدا من أجل العلم والمعرفة لا تراه إلا متنقلا من حلقة إلى أخرى ومن مناظرة علمية إلى مثلها مما جعل شيخه يهتم به ويوليه عناية خاصة.

ولما توفي الشيخ مبارك بن عزي سنة ١٨٧٧ إثر وباء الطاعون غادر بوزيان سلجماسة متوجها إلى فاس تنفيذا لوصية شيخه الذي كان قد أخذ عنه سر الطريقة الشاذلية، وقام بغسله وتكفينه والصلاة عليه بوصية منه أيضا.

وفي فاس التي بقي بها ثماني سنوات في مدرسة سيدي مصباح يدرس العلم على كبار علمائها أمثال الشيخ أحمد الحبيب اللمطي والشيخ محمد ابن عبدالقادر الفاسي وعبد السلام جسوس.

وفي وقت وجوده بفاس يظهر وباء الطاعون سنة ١٠٨٩ فيأتي على سكان المدينة وما جاورها ولم ينج منه إلا القليل حتى بلغ عدد الهالكين في اليوم الواحد من ٤٠٠ إلى ٨٠٠ ضحية.

لقد كانت الفترة التي قضاها بفاس من أخصب فترات حياته وأحبها إلى نفسه فكان لذلك كثير الحديث عن شيوخه بفاس، والتنويه بهم، والإشادة بذكرهم، فقد ذكر أنه أخذ الحكم لابن عطاء الله السكندري عن الشيخ محمد بن عبدالقادر الفاسي وعن الشيخ عبد السلام جسوس الذي أخذت عنه النحو واللغة والفقه